رائحة البشر

تقلم رينه عبودي

في ذلك الممر المعتم ، كل الحوانيت الان مغلقة . انصرف الباعة منذ وقت غير قصير بعد ان ادخلوا الى قلب الحوانيت بضاعتهم المؤلفة من الخضار المختلفة والفواكه .

سكنت السوق ، منظرها اصبح موحشا ، أرضها المتسخة تتزحلق الاقدام عليها في مضيها .

في هذه السوق المغلقة الحوانيت ، المتلاشي فيها نور قنديل ضعيف المتجمعة في زواياها اكوام القذارة ، يتردد الى سمعك فجاة صوت غريب.

هل سمعته ؟ انه يصدر عن ذلك الرجل الذي يقف هناك ، اجل هناك ، انظر الى حيث اشير لك ، انه يحمل سلة كبيرة ، يرتدي سروالا فضفاضا وعلى كتفه ترتمي حبلة غليظة معقودة الاطراف .

تقول انك لا تتبينه ؟ انه يضع على رأسه طاقية مدببة الشكل ، اسمع ، انه يهمس الان بكلام مبهم ، اسمع ، ها هو يصيح عاليا ، ويضحك ، يضحك بغبطة كالاطفال.

انه يخرج من السلة شيئا يرفعه عاليا ، يلوح به ثم ينظر يمينا وشمالا ويدع هذا الشيء الذي في يده يهوى . هل تعتقد بانه رمى ما بيده على الارض ؟ ولكن الا تسمع مواء الهررة ؟ لقد اقبلت جموعها نحوه من كل صوب ، من الازقة الضيقة التي تلتصق بالممر المعتم ، بالسوق المغلقة الحوانيت .

لا تتساءل طولا عما عساه يفعل ، ذلك الرجل منتصبا بين هررته حاملا سلته الكبيرة . انه عتال يعمل بجلد من طلوع الفجر حتى مغيب الشمس وكل ما يجمعه في نهاره من قطع نقود صغيرة وكبيرة يذهب بها الى مختلف قصابي الحي فيبتاع منهم بقايا لحوم يأتي بها كل هو او هرة جائعة . ان الهررة باتت تعرفه ، تسرع لصدى صوته ، مهللة. ولا تعجب من الذي جعله يفضل هذه العائلة المشتتة الافراد على عائلة .. من البشر .

قد يمر في ذلك الممر المعتم مار ، فاذا كان من اهل الحي القريب من السوق ، حيا العتال المنتصب بين هررته حاملا سلته الكبيرة ومازحه وضحك الاثنان معا . اما اذا كان المار في ذلك الممر المعتم يمر لاول مرة فاعتقد ان شعورا متضاربا سوف يجتاحه ولا بد ..

*

اما ذلك الرجل القابع في ذلك المقعد ، وهذه قصة ثانية ، فانه يضع رأسه بين راحتيه لا يرفعه الا نادرا . واذا رفعه ورمقك مرة فسوف لن تنسى نظرته .

لقد كان رجلا قويا . كيف ؟ كان يمتلك القدرة التي تجعلك تعتقد بانك تشرب ماء عذبا من قدح فارغ في يدك . لقد كان يمكنه ان يقرأ عليك وكانك امامه كتاب لالغاز في محتوياته . ارتفع عن ركيزة الانسان ـ الطين ـ ليصبح متفوقا ، اي له بعض الخصال التي لا يطولها الانسان، الانسان العادي . خطاه كانت ثابتة ، رأسه مرفوع في اعتداد ، رأسه الذي كان يجابه به رؤوس رجال في دول مختلفة . كانت القدرة التي يتمتع بها متمكنة تماما منه ، حتى انها ارتدت شخصيته واصبحت طبيعة ثانية غير متجزئة ، فنسي الطين ، الركيزة التي يقف عليها تمثال الانسان في الحديقة العامة .

ثم اقبلت تلك العجلات المسرعة ، وكان يقف هو الى النافذة ، يدخن، في عصر ذات يوم ، ويرقب شبكلا محببا كان يدنو من الدار ويرنو اليه بعينين تحلم فيهما البراءة ، يرنو الى النافذة حيث كان هو يقف . وحين اسرع يعدو على السلم ويهرول الى الشارع كانت عجلات السيارة قد مرت منذ زمن بعيد ودماء ابنته التي كانت تجتاز الشارع ما زالت تنزف على الطريق بينما كانت حقيبة كتبها مرمية في البعيد .

وبقي اشهرا منكبا وكانه يطالع في كتاب مرمى في حجره ولم يكن في حجره اي كتاب ، حتى نهض ذات ليلة وقد شعر بان الوقت قد حان فأسرع يعدو على السلم ويهرول الى الشارع . وابتعدت به خطاه الى ان وصل مكانا تهتز فيه اشباح اشجار السرو . فتمهل امام قبرها ثم انحنى يرفع الحجارة من هنا وهناك ، من هنا وهناك ، وعملت يداه في حمى منقطعة النظر : سيبعث ابنته حية .. حية من جديد . كان دماءها لم تنزف منها ، كان العجلات المسرعة لم تنقض على الجسد الصغير ، وفجاة صاح وعلا النشيج فاستيقظ حارس المقبرة واندفع يبحث عن ابليس فوجد امامه رجلا اشعث الشعر ، دامي اليدين يبكي ويصيح .. وكان حارس المقبرة في تلك الليلة الشاهد الوحيد .

*

اما الذي يقف على ناصيه الشارع وكانه استاذ مدرسة متقاعد ، فهو يسكن في الغرفة التي هناك مع امراة . اخته . تخال انه يفكر بامر هام يلزمه حل ، هذا ما اعتقدته اول الامر ، ولكنه في الحقيقة لم يعد يفكر باي امر هام. انه لا يعمل ، لا يحدث احدا ، لا يبتسم . انه يعيش من ايجار غرفة مجاورة لغرفة يسكنها مع اخته . واخته ان لم تكن تحدث احدا او تغادر الغرفة الا انها كانت هي التي تؤجر الغرفة الثانية المجاورة وتقبض ايجارها ، الوارد الوحيد لقوتهما اليومي.. الزهيد جدا . كانت الغرفة التي يسكنانها والغرفة الثانية المجاورة هما كل ما بقي من ارث جمعه في يوم بعيد كل البعد ، ذلك الرجل الذي انجبهما .

بزة الرجل قاتمة اللون دكناء . نسيجها يلمع في بعض الزوايا او قل اغلب الزوايا او تقريبا كلها . لم يتسن لاحد ما ان يراه مرتديا غير هذه البزة القديمة الداكنة اللون كانت تصحبها دائما ربطة عنق متكبرة مفتوحة الجناحين وقميص ابيض . اما شعره فقد كان اسود فيما مضى ثم اصبح رماديا اما الان فهو ناصع البياض . في عصر كل يوم احد ، كان ينزل الاثنان ، هو واخته ، الى الشارع ، ويسيران معا ، ويكون الشارع عابقا برائحة البشر ، وبهرجة ضجيج العائلات المتنزهة . فيمر الاثنان مجتازين الزحمة حتى اذا ما وصلا الى شارع بعيد كل البعد عن البلدة ، وضعت ذراعها في ذراعه وتابعا طريقهما في صمت .

لا تشغل نفسك بالهم المرتسم على وجهه ، لا تابه له . لقد اصابه الهوس يوما ثم تعود عليه فاصبح حياته . اما ما تكون عليه حياته ، فهذا يعود له .. دعه يتابع سيره مع تلك المراة ، ذلك الوجه الذي اجدب من كل تعبير ، لقد سكنت الى ذراع الرجل ، اخيها ، انك لتخاله استاذ مدرسة متقاعدا يمشي في اصيل يوم واحد مع زوجته ، ولكن .. في شارع قصي ، منفصل عن اصيل المدينة .

رينه عبودي